

شهر رمضان سبيلاً إلى تزكية النفس

وفاء عواضة

لطالما كتب وحّقّ ودقّ العلماء في فضائل وأهداف صيام شهر رمضان المبارك، ومن المعلوم أنّ هناك محطّات زمانية ومكانية اختصّها الله عزّ وجلّ بالبركة والقدسية ليلفت الإنسان إلى الكثير من الأمور المعنوية بهدف إعادته إلى السبيل القويم. ولطفاً بالإنسان ورحمة به، يُلقي الله عزّ وجلّ عليه نفحات من قدسيّته، علّه يلتقط بعضها أو يجتذبها، وهي منح يستجلب المولى الرؤوف عبرها عباده المؤمنين إلى ساحة قدسه ورضاه.

يعتبر شهر رمضان فرصة من الفرّص الخاصة التي هيأها الله سبحانه وتعالى للإنسان ليتعالى إلى مصافّ الملائكة ولو لفترة وجيزة ووقتٌ مُستقطع. فهل فعلًا يستطيع هذا المخلوق الأشرف بين المخلوقات بلوغ الهدف الحقيقى من خصوصية هذا الشهر الفضيل، مع العلم أنّ الإنسان عاجز عن معرفة الحقيقة من التشريعات الإلهية؟

يطلع القرآن الكريم الإنسان على الهدف الأساسي من الصيام في الآية الشريفة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقَوْنَ﴾¹، ألا وهو التقوى، والباحث يستنتاج أنّه لعلّه من الأهداف الحقيقة للصوم لا سيّما في شهر رمضان المبارك؛ شهر الضيافة الإلهية كما هو مشهور، فشهر رمضان لا يقتصر فيه الصيام على الامتناع عن الأكل والشرب وباقى الشهوات، بل هو مدرسة ل التربية الإنسان، وقد ذُكرت الكثير من الأحاديث في هذا السياق منها: "عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآلـهـ لـجابـرـ بن عبد الله: يا جابر هذا شهر رمضان من صام نهاره وقام ورداً من ليله وعفّ بطنه وفرجه وكفّ لسانه خرج من ذنبـهـ كخروجه من الشـهـرـ [...]"²، وفي حديث آخر "عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ الصيام ليس من الطعام والشراب وحده، ثم قال:

¹ سورة البقرة، الآية 183.

² الشيخ الكليني، الفروع من الكافي، تعليق وتصحيح علي أكبر الغفارى (طهران: دار الكتب الإسلامية، 1367 هـ.ش.)، الجزء 4، باب (أدب الصائم)، الصفحة 87، الحديث 2.

قالت مريم: "إني نذرت للرحم صوماً [...؛ أي صمتاً، فإذا صمت فاحفظوا ألسنتكم وغضّوا أبصاركم ولا تنازعوا ولا تحاسدوا [...]"³. وبنظرة دقيقة تدرج هذه التعليمات تحت عنوان: (تحذيب الأخلاق الإنسانية)، وبمعنى آخر تحذيب النفس وتربيتها. وفي سبيل بلوغ هذا المهدّف، فهناك الكثير من الحواجز التي لا بدّ للإنسان أن يتجاوزها، نذكر منها على سبيل المثال بعض النماذج في العنوان التالي.

قطاع الطرق لبلوغ المهدّف من الصيام.

جهد أعداء الدين والإنسانية على إيجاد السُّبُل لإبعاد الناس عن التحلّي بالأخلاقيات السامية، وحرفهم عن بلوغ الأهداف الإنسانية العليا، فابتدعوا الأساليب المُلْهِيَّة والمُؤثِّرة في العقول، ومسّوا بثقافات الشعوب عبر اللعب بمنظوماتهم الفكرية سواء كان من خلال اللباس، أو الطعام، أو الألعاب الإلكترونية، أو العادات والتقاليد، مستهدفين بذلك الفئات العمرية الشبابية لما لها من تأثير في تغيير المجتمعات. إضافة إلى ذلك فمن المُرجح أن يكون في كل طريق عوائق وعقبات، ولإزاحة هذه العقبات والتخلص منها، والعودة إلى الأصالة الفكرية والثقافية، فإن العمل الحيث ورفض التبعية الثقافية هو السبيل لذلك، ولهذا فإن الابتعاد عن المؤثرات السلبية ومكافحة الممارسات المستوردة في شهر رمضان المبارك هي الخطوات المطلوبة والناجعة في هذا الصدد، ومن هذه المؤثرات نذكر العينات التالية:

— السلوكيات الخاطئة والتي ترسّخت كعادات، ومنها الموائد الفارهة المسفرة وتسلیط البوصلة مجرد الإقبال على الأكل والشرب، والانصراف إلى النوم غالباً النهار، وقضاء الأوقات في الأسواق.

— المسلسلات التلفزيونية وما تستدعيه من اللهو والشهو عن العبادة وإحياء الأيام والليالي بالصلوة والدعاء، وصلة الرحم والإحسان إلى الفقراء والمساكين. وبالنظر والتمحیص في هذه المُلْهِيَّات، فما هي إلا أشبه بالمؤامرة لشفي الناس عن الاستفادة من فضيلة الصوم، والحال أنّ هذا الشهر هو شهر مضاعفة الأعمال.

الآداب والسلوكيات المحمودة في هذا الشهر الفضيل.

تكرّس الأهداف من الصيام في شهر رمضان خصوصاً، وفي غيره، بعض الممارسات الفضيلة من كسر للشهوات، وتطويع للنفس الأمارة بالسوء، وقطع للعلاقة المادية والشهوات، والالتفات إلى الروح

³ الفروع من الكافي، مصدر سابق، الصفحة 87، الحديث 3.

وبحردها، وإيجاد ذلك التوازن بين الروح والجسد. كذلك يعتبر شهر رمضان دعوة للتلاقي والمحبة بين الناس، دعوة إلى النظر في حاجات المحتاجين، والاهتمام بالفقراء والمساكين، بالإضافة إلى جملة من الأعمال التي حثّ عليها الشرع في شهر رمضان المبارك، ووعد بمضاعفتها مقارنةً بالأوقات الأخرى كقراءة القرآن الكريم، وإحياء الأيام والليالي بالذكر والتسلّل، والصلوات المستحبّة، والأدعية المأثورة، والصدقة، والدعوة إلى تفطير الصائم وما يمثّله من عنوان للتكافل الاجتماعي. إذن، المدف هو الارتقاء بالصيام من الصيام المادي إلى الصيام الروحي.

بالإضافة إلى كلّ ما تقدّم، يتّسم الصوم بسمات تختلف عن سائر العبادات، حيث يشكّل واحدة من الرياضات النفسيّة التي تشحد الإرادة، وتصقل الشخصية بالعديد من الأخلاقيات المتوجّة بالإخلاص، كالصبر وتقوية العزيمة والإرادة، إلى جانب الممارسات المشهورة في شهر رمضان المبارك كتوطيد العلاقات الاجتماعية وإنعاشها، وتنشيط الأعمال العباديّة. أمّا العنوان الأبرز للصوم في شهر رمضان فهو مشهد الوحدة بين المسلمين من خلال هذا العمل العبادي، القائم على اجتماع المسلمين في العالم كله على صيام هذا الشهر الفضيل، فهو نداء نبووي لجميع الناس "آتُها الناس، إنّه قد أقبل إليكم شهر الله بالبركة والرحمة والمغفرة"⁴. أمّا كبار العلماء فقد حتّوا على الصيام النفسي والروحي إلى جانب الصيام المادي الجسدي. وبعبارة أوضح، صيام الجوارح والجوانح لتكتمل العلاقة بين التشريعات وال الحاجات الإنسانية، ونجد في إرشادات الإمام الخميني (قُدِّيسَ سُرُّه) ما يسلط الضوء وبقّة على هذا التفصيل.

شهر رمضان المبارك في توصيات الإمام الخميني (قُدِّيسَ سُرُّه).

يجوز للمطلع على أقوال الإمام الخميني (قُدِّيسَ سُرُّه) بخصوص صيام شهر رمضان أن يعتبره مدرسة متكاملة لإصلاح النفس وذكّيتها، فالإمام الخميني أولى اهتمامه في بيان الربيبة الأساسية للصوم، حيث شدّد على الالتفات إلى مكامن الاستفادة للجوانب الروحية من خلال اجتناب الذنوب والحرام الإلهيّة التي تؤدي بدورها إلى اجتناب تلوّث القلب والروح "إذا لم تتمكنوا من إصلاح نفوسكم وتحذّيّها ومراقبة النفس الأمارة والتحكّم بها، وإذا لم تتمكنوا من سحق الأهواء النفسيّة وقطع علائقكم الماديّة بالدنيا: فإنّ من الصعب أن تقدروا على ذلك بعد انتهاء شهر رمضان، فاغتنموا الفرصة وهبّوا قبل انقضاء هذا الفيض الأعظم، لإصلاح أمركم وذكّيّة النفس وتطهيرها، وهيئوا أنفسكم لأداء واجبات شهر الصيام [...]" وكونوا حذرين دائمًا وملتفتين إلى الحكم الشرعي لهذا العمل الذي تنبعون الإقدام عليه، والقول الذي

⁴ الشيخ الصدوقي، الأمالي، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية (قم: مؤسسة البعثة، الطبعة 1، 1417هـ)، الصفحة 154.

ترى دون أن تنتظروا به، والموضوع الذي تستمعون إليه. هذه آداب الصوم الأولى، فتمسكوا بهذه الآداب الظاهرة على الأقل".⁵

بناءً على ما تقدم، يمكن القول: إن شهر رمضان هو مائدة إلهية غنية بالخيرات تستدعي من كل إنسان التهيئة والتحضير ليحصل على اللياقة لتلقي فيوضاتها والاعتراف من أرزاقها "لقد دعا الله تبارك وتعالى العباد لكل الخيرات والمبادرات، والكثير من اللذائذ الروحية والمعنوية، ولكن إذا لم يكن العباد أهلاً للحضور في مثل هذه المقامات السامية، فلن يتمكنوا من بلوغ ذلك؛ فكيف يمكن الحضور في حضرة الحق تعالى والدخول في ضيافة رب الأرباب الذي هو "معدن العَظَمَة" مع كل هذه التلויות الروحية، والرذائل الأخلاقية، والمعاصي القليلة والظاهرة؟ إن الأمر بحاجة إلى لياقة واستحقاق، ولا يمكن إدراك هذه المعاني بوجوه مسودة، وقلوب ملوثة بالمعاصي وملطخة بالآثام. فلا بد من تمزيق هذه الحجب، وإزالة هذه الغشاوة المظلمة والمضيئة التي كَسَت القلوب ومنعتها من الوصول إلى الله، حتى يمكن الدخول في المجلس الإلهي التوراني ذي العَظَمَة".⁶

في الختام، إن كل ما يستطيع الإنسان معرفته في الغالب هو الأهمية من سن هذه التشريعات، لا سيما عند الاطلاع على بعض الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية، والروايات المشهورة عن أهل بيته العصمة عليهم السلام في خصوصية هذا الشهر الكريم، والأثر الإيجابي الذي يتركه على الروح والجسد معًا.

لهذا، فإن تجنب محارم الله، وابتاع أوامره، والعمل ضد العوائق والعقبات للاستفادة من الشهر الفضيل وتخلية النفس من الشوائب والعائق الدنيوية هو الحل الناجع والسبيل إلى التقوى، وتحلية هذه النفس بالفضائل والمكارم، وبالتالي بلوغقرب الإلهي والتنعم بالفيوضات والنعم الإلهية، والحصول على التجلية اللافقة بخليفة الله الأكرم والأشرف على هذه الأرض، والشرف بالضيافة الإلهية على شكلها الأتم والأوفى.

